

الفكاهة في شعر محمود غنيم

كان للفكاهة في حياة الشاعر الراحل محمود غنيم (١٩٠١ - ١٩٧٢ م) وشعره جانب وافر، فقد عُرف عنه أنه سريع البديهة ، حاضر النكتة ، خفيف الظل وما يروى على ألسنة مخالطيه من الأدباء أكبر بكثير مما حوته دواوينه المطبوعة وديوان (صرخة في واد) هو أشهر دواوين محمود غنيم ، فقد نال هذا الديوان جائزة الشعر الأولى في مسابقة المجمع اللغوي بالقاهرة ونشر عام ١٩٤٧م عن طريق لجنة البيان العربي - ويحتوي هذا الديوان على عدد لا بأس به من قصائد الفكاهة الراقية التي جمعها شاعرنا تحت عنوان (مداعبات) .

ومن قصائد الفكاهة الممتعة في هذا الديوان تلك القصيدة التي داعب فيها محمود غنيم صديقاً شاعراً سلبه اللصوص سبعة جنيهات ، وكان لمثل هذا المبلغ في وقته شأن أي شأن وقد نشرت هذه القصيدة في مجلة الرسالة في ٦ يونية سنة ١٩٣٨م ومطلعها آية في الإجابة وبراعة الاستهلال إذ يقول شاعرنا موسياً صديقه المسروق :

هوّن عليك وجفف دمك الغالي لا يجمع الله بين الشعر والمال

ويتجه شاعرنا إلى صديقه ساخراً مؤنباً فيقول وهو يمزج سخريته من صديقه الشاعر بالسخرية من نفسه أيضاً :

من أين أصبحت ذا مالٍ فُتْسَلِبُهُ يا أشبه الناس بي في رقة الحالِ ؟

فياها سبعة من جيبك انطلقت وأنت أحوج مخلوق لثقالِ

وتأخذ مواساته لصديقه شكل النصح وصوت الحكمة ، فهو يقول إن صديقه كاد يفقد عقله بفقده النقود ، ولعل ضياع النقود يكون وسيلة لسكون النفس فالذي لا يملك شيئاً ينام قرير العين رضي البال لأنه لا يخشى على شيء يملكه ويفخر بنفسه فهو أقوى من اللصوص بما هو فيه من فقر :

قالوا خلت يده من كل ما ملكت فقلت بل رأسه من عقله خالٍ
لم يبق عندك ما تخشى عليه فتم كما أنام قريراً ناعم البالٍ
نفسى- فداؤك ليت اللص صادفني قد يغلب اللصّ بالإفلاس أمثالي

وتبلغ سخرية الشاعر بصديقه أفسى درجاتها حين يتساءل كيف سيقضي هذا الصديق شهراً كاملاً بلا مال ؟ هل سيصوم ؟ أم سيعيش على شعره يقتات منه ويرتوي به ؟ كما يرتوي الظمان بالسحاب من بعيد :

يا ليت شعري ماذا أنت صانعه أتزمع الصوم حتى شهرك التالي ؟
عش من قريضك في ري وفي شبع إن كان ينتفع الظمان بالآل ؟

وفي ختام القصيدة يتهم شاعرنا صديقه المسروق بأن النقود فرت من جيبه لأنه جيب ممزق في ثوب قديم لعبت به يد الزمن ، فهو في سوء حاله ورقة سرباله لا يختلف كثيراً عما سرقوه :

أقسمت ما سلبت تلك النقود يدٌ لكنها أبقت من جيبك الباى
الذئب لا يشتهي لحم ابن جلدته فكيف أوقع نشالٌ بنشالٍ ؟

ومن مداعبات محمود غنيم الراقية أنه استمع ذات مرة لمحاضرة ممتعة ألقاها صديقه الأديب الكبير كامل الكيلاني عن فلسفة جحا ويبدو أن المحاضرة كانت جامعة شاملة مقنعة بسلوكيات جحا ذلك الفيلسوف الذي اشتهر في تراثنا العربي بذكائه وفطنته ويخله . فعقب محمود غنيم على هذه المحاضرة قائلاً :

إني حسبت جحا مجانّة ماجنٍ فإذا به رجلٌ جليلُ الشانِ
هو فيلسوف قام ينشرُ - فضلهُ بين البرية فيلسوفٌ ثانِ
ما زال يُطريه ويُعلي قدره متحدثاً عنه كل لسانِ
حتى حسبتُ (جحا) ابنَ سينا عصره أو من أقارب كامل الكيلاني

ومن المساجلات الشعرية الفكاهية التي كانت كثيراً ما تحدث في تلك الحقبة بين الشعراء ، ما دار بين شاعرنا محمود غنيم وبين الشاعر محمد الأسمر رحمه الله وقد كان الأستاذ محمد الأسمر نشر كلمة نثرية في جريدة الأهرام يحث فيها الضيوف الذين يقلقون راحة الناس في منازلهم أن يراعوا مشاعر الناس وأوقات راحتهم واقترح الأستاذ محمد الأسمر على كل صاحب بيت أن يعلق على بابه بيتين للشاعر الأستاذ محمد الهراوي يخاطب فيهما الضيف فيقول :

إن في الفندق ماءً أو ك ، وفي السوق غداءك
ليس ذنباً لأناسٍ أن يكونوا أقرباءك

فكتب الشاعر محمود غنيم في الأهرام يوم ١١ يوليو ١٩٣٨م يرد على كلمة الأستاذ محمد الأسمر ويداعبه قائلاً إن عليه أن يصوم إذا كان عنده ضيوف ويقدم

ما عنده من طعام وغطاء لضيوفه ، فإن تمسك ببخله وحرصه ، فإن أصدقاءه من الشعراء سوف يتشككون في انتسابه إلى العروبة ، وسوف يقومون بتحليل دمه [وهي تورية لطيفة قد يقصد بها أنهم سيحللون دمه لمعرفة إلى أية فصيلة ينتمي وقد يراد بها أنهم سيستحلون دمه لبخله].

وفي النهاية يقدم الشاعر لصديقه وصفة طبية لعلاج البخل تتمثل في أن يأخذ " نقيع " الجود فيشربه ليشفى من داء البخل . يقول غنيم لصديقه الأسمر

أنت إن لم تَسْخُ مثل الـ	عرب أنكرنا إخاءك
وَشَكَّكْنَا فيك يا صا	ح وحلَّلْنَا دمَاءك
لا أَوَاك الييت والفنـ	دقُّ يَاوي أقربَاءك
فيم يخشى فقدك النا	سُ ويرجون بقاءك ؟
إن يهن عندك ضيفُ	يكن الهون جزاءك
فدع الحرص وإلا	عجَّل الحرص فناءك
إنما يُفكرك الحر	ص . ويُغني ورثَاءك
رُبَّ يومٍ أنت فيه	تارك المال وراءك
يا صديقي قد فحَصُـ	نك فكان البخلُ داءك
خذ نقيع الجود واشـ	رْبُهُ تجد فيه دواءك

وينهي محمود غنيم قصيدته بتقديم واجب العزاء لصديقه الأسمر في فقيد
عزیز هو " السخاء والكرم " الذي كان يتحلى به أمس ثم فقدته فهو يعزیه في كرمه
الذي كان فيقول :

كنتَ بالأمس سخياً رحم الله سخاءك
ابك ما شئت عليه أجمَل الله عزاءك

وقرأ الأستاذ الشاعر محمد الأسمر أبيات صديقه محمود غنيم فرد عليه في
" الأهرام " بتاريخ ١٧/٧/١٩٣٧م ووصف صديقه بأنه يحاول ادعاء الكرم مع أنه
بخيل بطبعه ، وبأنه كشف ستر نفسه ولم يكن بحاجة إلى إجهاد نفسه في التزيي
بزي غيره . قال الأسمر :

يا صديقي أنت في شعـ رك لم تلبس رداءك
يا كريم العصر ما أجـ مل في الجود ادعاءك
شد ما أتعبت شيـ طان قوافيك وراءك
قد عرفناك صغيراً وتبيننا سخاءك
فاحمد الله على السـ ر ولا تكشف غطاءك
لا أطيل القول أنت اليـ وم أصبحت سواءك
صرت محمداً جديداً بعد ما داويت داءك
فأطال الله للجـود الكلامي بقضاءك

ويتطايير شرر المعركة ، ويستمر أوارها ، فيرد محمود غنيم على صديقه الأسمر بقصيدة ينشرها الأهرام يوم ٢٠/٧/١٩٣٨ يذكر فيها أن له فضلاً على الشاعر محمد الأسمر ، وأنه أطعمه وأكرمه عدة مرات ، وأنه يريد أن يذكره بهذا لولا خشيته من أن يقول الناس إنه يمينٌ عليه . ويناشد محمود غنيم صديق الأسمر أن يتوب إلى الله ويعترف بما لصديقه من فضل عليه ويسعى إلى تعلم الكرم والجود فيقول غنيم :

أيها المنكرُ جودي	رحم الله حياءك
أنا لولا أن يقولوا :	من أظهرت افتراءك
هل تناسيت سخائي	وتناسيت ثناءك ؟
كم نظمت الشعر في مد	حي فأجزلت عطاءك
وعلى جودي - بعد اللـ	ه - علقت رجاءك
أنت من يوم بعادي	عنك لم تملأ وعاءك
عَرَفَ الرَّفَاءُ يَا أَسـ	مر من بعدي كساءك
وعجيب منك أن تهـ	دم من أعلى بناءك
رُبَّ شَخْصٍ أَنْتَ أَحْسَنـ	ت إليه فأساءك
صاح تُبِ أَمْنَحْكَ عَفْوِي	وادعني أقبُل دعاءك
وإذا شئت فكن ضيـ	في وقد جيشاً وراءك
تجد المنَّ شراباً	لك والسلوى غذاءك

فتعلم منِّي الجـو دَوعَلِّمَ أَقْرَبَاءَكَ
 لستَ بالمصريِّ أو تُعـ لِنَ لِلنَّاسِ سَخَاءَكَ
 فبعث إليه الشاعر محمد الأسمر بالأبيات الآتية وكانت ختام المداعبة
 ويك يا محمود هل تنـ سى رداي ورداءك؟
 يوم تمشي فيود الـ دهرُ لوقام فقءاك
 فاذكر الدار التي كنـ لها واذكر بكاءك
 لم تـمـرُ هـرَّةُ دار يوم أضربنا مُواءك
 طففت بالمطبخ سبعاً وتناولت حساءك
 أنت لم تترك لمصرِـ يوم نادتك غداءك
 أتري تترك للضيـ ف إذا جاء عشاءك
 يا صديقي هكذا كنـ فهل صرت سواءك؟
 يا كريم العصر هل تبـ صر قلقتاساً وراءك
 ما هجوناك ولكنـ ما ذكرنا لك داءك

والمقصود بالدار في هذه الأبيات دار مدرسة القضاء الشرعي التي كان
 الشاعران غنيم والأسمر زملاء دراسة بها أيام التلمذة .

وأما قصة القلقاس فتتلخص في أن تلامذة القضاء الشرعي أضربوا يوماً عن
 دخول مطعم المدرسة احتجاجاً على تصرفات الإنجليز ضد الوطن . ولكن الشاعر

محمود غنيم لم يصبر على الجوع فدخل المطعم وحده وتناول الغداء وكان قلقاساً
فالأسمر يعيره هنا بهذه الواقعة .

ويلاحظ من يقرأ هذه المساجلة :

١. أن الشعارين التزما بحراً واحداً ، وقافية واحدة ، ومع ذلك فقد جاء الصياغة
الشعرية عند كليهما محكمة لا ضعف فيها ولا تكلف .

٢. أن المساجلة قامت على ادعاء من كلا الطرفين وقامت على تبادل الاتهام
بالبخل وادعاء كل منهما أن له على الآخر فضلاً وأن الآخر لا يعرف الجود
والكرم .

٣. أن الإطار الذي صيغت فيه أبيات كلا الشعارين إطار أخلاقي يسيج بالأخلاق
العالية الرفيعة فلا شتم ولا بذاءة ولا إسفاف وهذا هو شأن الفكاة الراقية

٤. أن رد كل من الشعارين على صاحبه كان يأتي سريعاً وقويماً في آن واحد
ومن فكاهاة محمود غنيم ذات الوزن الثقيل ما وصف به شاعراً صديقاً له
أغمي عليه عندما سمع صوت غارة جوية . وكان ذلك إبان الحرب العالمية الثانية
وكان الشعاران في الإسكندرية ، ومن عادة الناس في أثناء الحروب أن يستمعوا إلى
بوق الإنذار ، فإذا سمعوه لجأوا إلى اقرب مخبأ من تلك المخابيء التي تكون معدة
تحت الأرض أو وراء ستائر رملية لتقي المدنيين من آثار القصف العشوائي

وقد لجأ الشاعر وأصدقائه فيما يبدو إلى أحد المخابيء ، فلما حدثت الغارة
أغمي على صديقه ذاك حتى إذا أفاق اكتشف أصدقائه أنه لوث نفسه ، فقال غنيم

هذه الأبيات التي نشرها "الأهرام" في ١٠/٩/١٩٤١م

أرأيت صُنِعَ محمدٍ في مخبأً بالناس حافل
سمع الصفير مدوياً فتفككت منه المفاصل
ما كان أشجعَه فقد لاقى "القنابل" "بالقنابل"
ووهتْ عزيمته فأفلتَ يابسٌ منه وسائل
ويحيى على رفقاءه من قاتلٍ هربوا القاتل

وهكذا هرب أصدقاء ذلك الشاعر الرعديد من قصف القنابل خارج المخبأ فوقعوا فيما هو شر منها مما أحدث صاحبهم من جزع وهلع وتلوث بيئي وأصوات منكرة .

ومن أشهر أشعار محمود غنيم الفكاهية تلك الأبيات التي سارت بين أوساط المثقفين والأدباء وكررت الصحف والمجلات نشرها مرات ومرات لأنها ارتبطت بشاعر آخر هو ابراهيم ناجي . وقصتها أن الوزير الأديب دسوقي ابراهيم أباطلة باشا وكان صديقاً لجميع أدباء عصره - دعا محمود غنيم مع آخرين إلى حفل رسمي وكان يتعين على من يحضر حفلاً رسمياً أن يرتدي الردنجوت [بدلة رسمية للمناسبات الرسمية] - فذهب غنيم بملابسه العادية فلما رآه الوزير سأله عن سبب عدم مجيئه بالردنجوت فتعلل الشاعر بأنه فكر أن يستعير واحداً من بعض أصدقائه - كما فعل ابراهيم ناجي - ولكنه تراجع عن ذلك خوفاً من أن يميناً عليه من يعيره . ودلل على ذلك بأن جميع الحاضرين يرتدون أزياء ردنجوت مستعارة فأنت ترى القصير منهم يرتدي زياً طويلاً ، والطويل يرتدي زياً قصيراً يقول غنيم :

"الردنجوتُ" يا جناب الوزير
 ليس يقوى عليه جيب الفقير
 رمتُ أن أستعيـره مثل "ناجي"
 ثم أحجمت خوفَ مَنْ المعير
 كم رأيت القصير فوق طويل
 ورأيت الطويل فوق قصير
 لست أرضى بثوب غيري وإن هم
 نسجوه من سندس وحرير

ولما اطلع الأستاذ الشاعر ابراهيم ناجي على تلك الأبيات أجابه مداعباً

بقصيدة طويلة جاء فيها :

وأقسم لو أن "الردنجوت" نلته
 وجاد به مَنْ جاد قهراً وسلّفا
 لقلّبتَه ظهراً لبطنٍ تحيُّراً
 به تحسبنَّ الوجهَ - مِنْ عَبْطٍ - قفا
 فأجابه الشاعر بقوله هاجياً إبراهيم ناجي وكان طبيباً :

لنا طبيب يداوي الناس إن مرضوا
 بالفصل ما بين أرواح وأبدان
 ومن تجرع كأس الموت من يده
 فلن يمر على جنات رضوان
 ردّ "الردنجوت" موبوءاً لصاحبه
 فلم يطهره "محلول السليمانى"

و "محلول السليمانى" من محاليل التنظيف الشهيرة في ذلك العصر التي كانت ذات فاعلية في قتل الحشرات وعلاج الأوبئة .

وهكذا كانت حياة شعراء تلك الأيام : حياً متصلاً ، ووداً وثيقاً ، وفكاهةً راقية على نحو ما نرى في دواوين طائفة كبيرة من هؤلاء الشعراء الذين يمكن أن نطلق عليهم شعراء الموجة الثانية الذين لم تتح لهم ظروف الحياة ما أتاحت لشعراء الموجة الأولى كمشوقي وحافظ ومطران من شهرة وذيوع صيت ، فعوضوا ذلك بأن أسعدوا أنفسهم بالحب والتصافي بدلاً من الشهرة والتجافي .